في التوبة

للقديس يوحنا ذهبي الفم

التوبة

العظة الثامنة

للقديس يوحنا ذهبي الفم

إذا كنت قد تغيَّبت عنكم، فهذا شيء ما كنت أريده، ولكني كنت مجبراً على ذلك – إلاّ أن غيابي عنكم كان بالجسد فقط وليس بالروح. بالجسد كنت بالتأكيد بعيداً عنكم، ولكن روحي لم تنفصل عنكم قط؛ فالروابط التي توثقت بيننا كانت تعتمل فيَّ بكل قوتها، وصورتكم ظلَّت محفورة في قلبي.

لقد كنت متلهِّفاً يا إخوتي أن أحوز هذه الوعكة المؤقَّتة لكي أراكم ثانية بأكثر سرعة، مع أنه لا يزال يتبقى فيَّ بعض الآثار من مرضي فإنني أسرعت إليكم حتى ألتقي ثانية بمحبتكم ومودتكم.

إن كان كثيراً ما يستعين المرضى في فترة النقاهة بعلاج الحمامات، فأنا من جهتي فضَّلت أن أغطس ثانية وبسرعة في حمَّام المحبة الذي تقدِّمونه إليَّ، وأُلبِّي رغبتكم المقدَّسة لسماع الكتب الإلهية – هذا المحيط الواسع الذي لا تعرف أمواجه العواصف أو الحزن.

لقد أتيت لأرى أرضكم من الآن فصاعداً نقية. هل يوجد ميناء سلام مشابه للكنيسة، وهل هناك فردوس (مملوء بثمر البر) مثل اجتماعكم؟ نحن هنا نجد الملجأ الأمين من كل خبث الشيطان، هنا المسيح يثبِّتنا في أسراره.

لن تُرى هنا حواء الساقطة في التعدِّي، ولكن ستُرى الكنيسة باذلة جهدها لترفعنا إلى فوق.

لا توجد هنا أوراق شجر، ولكن فقط ثمار الروح الشهية. لا يوجد هنا شوك وحسك، ولكن كرمة خصبة وعصارة حياة. وإن وُجِدَ فيها شوكة،

سأحولها في الحال إلى زيتونة. ماذا يهمنا من ضعف الطبيعة هنا حيث تسود الحواس السائبة، فإن قابلتُ ذئباً حوَّلته إلى خروف ليس بتغ طبيعته لكن بتهذيب حواسه.

الكنيسة شبيهة بفلك نوح:

من الممكن أيضاً أن نؤكّد دون مبالغة أن الكنيسة ميناء أعظم حتى من فلك نوح. لأن فلك نوح استضاف الحيوانات العجماوات وحفظ حياتها سالمة. بينما الكنيسة وهي تقدِّم لهم الملجأ تحوِّلهم إلى جدة الحياة. سأوضِّح لكم هذا:

تخيَّلوا مثلاً صقراً دخل إلى الفلك فإنه سيخرج صقراً كما هو، وكذلك الذئب إن دخل فسيخرج ذئباً كما هو، ولكن إن دخل الكنيسة صقرٌ فعلى العكس سوف يخرج حمامة وديعة، وأيضاً الذئب إن دخل الكنيسة سيخرج خروفاً هادئاً، والحية ستخرج حملاً وديعاً. إذن فالكنيسة لا تعمل على تحويل طبيعة الكائنات ولكن تنتزع منهم الشر.

منفعة التوبة:

هذا هو السبب الذي لأجله أحدِّثكم باستمرار عن التوبة. حقًّا إنها تسبب خوفاً وضيقاً للخاطئ، ولكنها ترياق صالح تعالج فيه علل الخطايا، وهي تفتديه من آثامه. ومقابل الدموع الغزيرة تجعل له دالة عند الله، فهي سلاح مخيف ضد الشيطان، نَصْلٌ بتّار قادر على الاستئصال. فالتوبة تمنحنا الرجاء في الخلاص، وهي عدوَّة لليأس، هي التي تمنحنا مفاتيح السماء، وهي التي تسمح لنا بأن نصل للفردوس وهي التي في النهاية تنتصر على الشرير وتقوِّي رجاءنا في الإفلات منه، [وهذا هو الدافع الأساسي والسبب الحقيقي الذي من أجله أحدِّثكم الآن عن التوبة].

أأنتم خطاة؟ لا تيأسوا. فأنا أصر على أن أُقدِّم لكم الرجاء كدواء وكأفضل علاج لضعفكم، لأني أعرف إلى أي مدى يمكن للثقة المستمرة

والرجاء في الله أن تكون سلاحاً فعَّالاً مقابل الشيطان. لن أكفّ من أن أكرِّر لكم أنه إذا أخطأتم لا تستسلموا في اليأس. إن أخطأتم كل يوم فتوبوا كل يوم!

أسألكم سؤالاً فقولوا لي ماذا نفعل عندما تتهدَّم مبانينا القديمة؟ ألا نضع جانباً الأشياء المتهدِّمة لنقيم بدلاً منها الجديد؟ ولا ندَّخر الجهد في بذل كل اهتمامنا لهذا التعمير. فليكن لنا مثل هذا بالنسبة لأنفسنا، فإن خضعتم للخطية فجدِّدوا أنفسكم بالتوبة.

ستقول لي: كل حياتي وأنا واقع تحت سطوة الخطية وأنت تقول لي الآن إذا أنت قدَّمت توبة، فستجد الخلاص والعتق؟

- نعم بكل تأكيد. وإذا سألتني:
- من أين لك هذه الثقة؟

- أقول لكم: من مراحم الله تجاه البشر. لا تفتكروا أنني أبني ثقتي هذه فقط على توبتكم، لأني أعرف أنها لا تقوى على طرد كل الشرور من القلب. إذا كانت لا توجد غير التوبة فقط لكان يحق لكم أن تكونوا قلقين! أمَّا إذا كان صلاح الله هو أساس اعتمادنا، فيجب أن تثقوا. فمراحم الله نحونا لا نهائية، بل أقول أيضاً إنها تفوق كل تعبير.

إن ضعفاتكم محدودة أمَّا علاجها فليس له حدود؛ حتى وإن كانت أخطاؤكم لا تُحصى فهي لا تزيد عن كونها أخطاء بشرية، وهي لا تُقاس إزاء صلاح الله اللانهائي. فلتكن لكم ثقة في الله، لأن التوبة ستنتصر على رذائلكم.

تخيَّلوا شعلة سقطت في البحر - هل يمكنها بعد ذلك أن تظل مشتعلة؟! إن خطاياكم ستتلاشى عندما تتلامس مع صلاح الله مثل انطفاء الشعلة إذا لامست الماء، بل إن المحيط رغم اتساعه فهو له حدود، أمَّا المراحم الإلهية فهي غير محدودة.

الرذائل تُقتلع قليلاً قليلاً:

لا أقصد على الإطلاق بمثل هذا الكلام أن أسقطكم في السلبية، لكني على العكس أحثكم على مزيد من الاجتهاد. مرَّات عديدة حذَّرتكم من التردد على المسارح، وأنتم سمعتم هذا الكلام و لم تلتفتوا إلى نصائحي، بل ذهبتم للمسارح دون أن تعيروا أي اهتمام لتوصياتي لكم. ولكن لا تخجلوا من العودة هنا مرَّة أخرى لتسمعوني.

ـ ستقول لي: لكني قد سمعتك سابقاً و لم أطعك. فما الفائدة من العودة هنا؟

ـ أنتم إذن تعترفون بأنكم سخرتم من نصائحي وهوذا أنتم خجلتم وخزيتم! أنتم بصعوبة تخفون انزعاجكم بينما لا أحد يوبخكم! إذن فكلماتي لا تزال محفورة في نفوسكم، وحتى في غيابي فهي تعمل فيكم. أنتم لم تحفظوا نصائحي وهوذا أنتم الذين تلومون أنفسكم! فبسبب ذلك قد تناقص ذنبكم إلى النصف. لأنه مع أنكم قد احتقرتم نصائحي، فأنتم قد اعترفتم بخطاياكم بمجرد قولكم: أنا لم أتبع نصائحك. إنني أعتبر أن كل مَنْ لام نفسه بأنه قد سقط عن الوصية هو الآن على الطريق الصحيح.

هل لكم نظرات خاطئة تلومون أنفسكم عليها؟ هل ارتكبتم خطأً؟ هل سحرتكم زانية؟ هل بمجرد خروجكم من المسرح وتذكركم ما سمعتموه، أتشعرون بالخزي حينئذ؟ تعالوا! هل أنتم متضايقون؟ تضرَّعوا إلى الله وللوقت تقومون.

ـ تقول: الويل لي لقد سمعت تحذيراتك و لم أعرها أي اهتمام، فكيف أستطيع العودة إلى الكنيسة؟ كيف أستطيع من جديد أن أسمع كلامك؟

ولكن هنا بالذات يوجد سبب أكبر لكم لكي تعودوا وتنضموا إلينا من حيث أنكم خالفتم. فالآن ستسمعونني مرَّة أخرى وسأعطيكم نصائحي وفي هذه المرَّة ستعملون بها. لو أن الطبيب وصف لكم دواءً لم يأتِ بعد

بالنتيجة المرجوة، ألا تعتقدون أنه يقدِّمه لكم مرَّة أخرى في الغد؟

تخيَّلوا حطَّاباً: إنه يأخذ بلطة لكي يقطع بلُّوطة فيبدأ بقطع الجذور. إن لم تقطع الشجرة من الضربة الأُولى فهو لن يتردَّد من الضرب ثانية وثالثة ورابعة وعاشرة إن احتاجت. افعلوا أنتم بالمثل: إن بلوطتكم لهي شجرة عقيمة وثمارها لا تخدع إلاَّ الحيوانات الغبية. تلك الشجرة هي الزانية. إنها قد تأصَّلت منذ وقت طويل داخل فكركم ولقد غلَّفت ضمائركم بخبائلها.

إن كلماتي تشبه البلطة ـ لقد سمعتم كلماتي مرَّة ولكن هل تعتقدون أن الشيء الذي تأصَّل منذ وقت طويل يمكن أن يسقط بضربة واحدة؟ أتجدوه أمراً غريباً أن يسقط في المرَّة الثانية أو الثالثة أو المرة العشرين أو حتى بعد ربوات من المرَّات؟ إطلاقاً!

الشيء الوحيد الذي يهم هو أن تهدموا هذا الانعطاف الرديء الذي التصق بكم كعادة خبيثة. إن اليهود اغتذوا بالمن وطالبوا ببصل مصر ـ لقد كانوا يقولون باكين: «لقد كنا سعداء في مصر!» هذا الوضع المحزن والوضيع للغاية لم يكن سوى تعبير عن عادة سيئة. فافهموا حسناً أنه لا يكفي أن تسلكوا سلوكاً لا غبار عليه لمدة عشرة أو عشرين أو ثلاثين يوماً حتى أرفعكم فوق السحب وأهنِّئكم وأقبِّلكم. ولكن الشيء الأهم بالنسبة لي هو ألاَّ تسقطوا في اليأس؛ وكل ما أطلبه منكم هو أن تشعروا بالخجل وأن تلوموا أنفسكم.

الخطأ وعلاجه:

٢ ـ منذ فترة حدَّثتكم عن المحبة، فبالرغم من أنكم سمعتموني إلاَّ أنكم مضيتم وسلبتم الآخرين ولم تعملوا بوصيتي ـ لا تتردَّدوا مع ذلك في العودة للكنيسة. اخجلوا من أخطائكم وليس من توبتكم، وافهموا جيداً ما هو عمل الشيطان الذي يحاول أن يعمله فيكم.

فنحن أمامنا شيئان: الخطية والتوبة. الخطية هي الجرح الذي تحمل له التوبة العلاج. إن ما يوجد للجسد يوجد أيضاً للروح. فكما للجسد توجد جروح وأدوية. هكذا أيضاً للروح فلها خطايا كالجروح وأيضاً التوبة كعلاج. فبينما الخطية يقابلها الخزي فإن التوبة يجب أن تكون مصحوبة بالثقة [في محبة الرب لرجوع الخاطئ].

تابعوا شرحي أتوسَّل إليكم ـ لأنه إذا فقدتم متابعة كلامي هربت فائدته منكم. نحن إذن لنا جرح ودواء، الخطأ والتوبة؛ الجرح هو الخطأ والعلاج هو التوبة؛ الخطأ يسبب نوعاً من الغرغرينا بينما التوبة توقفه. الخطية تزيد هذه الغرغرينا وتغطّي المريض بالعار والخزي. التوبة على العكس مصدر للثقة والحرية والتطهير. انتبهوا لذلك! الخجل رد فعل للخطية، والثقة ملازمة للتوبة. هل أدركتم ما أريد أن أقوله؟ إن الشيطان يقلب الأمور ويربط الثقة بالخطية والخزي بالتوبة!

سأشرح هذه المسألة؛ لن أملّ من الكلام حتى لو كان عليَّ أن أتابع حديثي حتى المساء، سأعالج هذا الموضوع ولن أتهرَّب منه. نحن إذن أمام جرح مماثل للغرغرينا وعلاج ودواء يهدف إلى التطهير من هذه الغرغرينا. هل الدواء هو الذي يُنشئ الفساد؟ وهل الجرح هو الذي يسبب الشفاء؟ هذه الأسباب وهذه النتائج أليست هي مرتبطة بحسب ترتيبها الطبيعي؟ هل تظنون أنها قابلة للتبديل؟ طبعاً لا! فلنصل إذن لمشكلة النفس المدنّسة بالخطايا.

إن عمل الخطية الخاص هو أن تجلب الذل والعار والخزي لمن يرتكبها، وأمَّا اختصاص التوبة هو الثقة والتعقّل والاستقامة: «حاسب نفسك لكي تتبرَّر» (أم ١٨:١٧). إن الشيطان يعلم أن الخطية تلد إحساساً بالخزي يكفي لأن يقتاد الخاطئ إلى الطريق المستقيم، وأن التوبة تلد إحساساً من الثقة كفيل بأن يجتذب التائب. لذلك فإنه يعمل على أن يقلب الوضع لكي يربط التوبة بالخزي ويربط الخطية بالثقة! سأعطيكم مثالاً لذلك:

رجل أُمسك بشهوة مستعرة لزانية، فيتبعها كما لو كان أسيرها، ويدخل لديها ودون أدنى إحساس بالخزي يستسلم لها ويُسلّم نفسه للخطية ـ أُكرِّر ـ أنه لم يُظهر أي خجل عند ارتكابه الخطية، ولكن عندما يخرج ويريد أن يتوب هل في تلك اللحظة يخزى؟ يا للتعاسة! هل وأنت بين براثن تلك المرأة لم تشعر بالخزي، والآن وأنت تنوي التوبة تُمسَك بالخزي؟ لقد قلتم لي إنه خزي، ولكن لماذا لم يختبر هذا الخزي وقت ارتكابه الخطية؟ لماذا يخجل من التحدُّث عن إثمه إذ أنه ارتكبه دون خجل؟

انظروا دهاء الشيطان، فأثناء استسلام هذا الرجل للخطية لم يدع الخزي يجتاحه، ولكنه يعمل على أن يفضح ضعفه: لأنه يعرف أنه لو كان قد خجل لكان تقهقر أمام الخطية؛ ولكن على العكس فإنه يسلّمه للخجل في لحظة التوبة؛ لأنه يعلم أن هذا الإحساس سيكون عقبة في توبته. إن هدفه حينئذ يكون مضاعفاً فهو من ناحية يجتذب فريسته نحو الخطية ومن الناحية الأخرى يمنع التوبة.

لماذا هذا الخلط في الأمور؟ في لحظة ارتكاب الفعل الأثيم لا تُظهرون أي خجل، والآن وأنتم على وشك أن تتعالجوا من الخطية تخجلون؟ هل تخجلون من التحرُّر من الخطية؟ كان يجب أن يكون هذا هو سلوككم وأنتم تخطئون! هل انتظرتم حتى وقت التبرير لتحمرُّوا خجلاً، بينما ذلك لم يرد عليكم حينما كنتم تخطئون؟

"حاسب نفسك لكي تتبرَّر". يا للصلاح الإلهي. إن الرب لم يقل: لكي تهربوا من العقوبة ولكن قال: "لكي تتبرَّر". أما كان يكفي أن لا تعاقبه حتى أنك تبرِّره أيضاً؟ بالتأكيد. لكن اسمعوا بالأولى، أين نجد مثالاً لمثل هذا التبرير؟ بالنسبة للص اليمين: لقد صار كافياً له أن يقول لرفيقه ألا تخاف الله؟ أمَّا نحن فبعدل جوزينا لأننا نال استحقاق ما فعلناه، لكي يسمع هذه الكلمات من يسوع: «اليوم تكون معي في الفردوس» (لو

٤٣:٢٣). إنه لم يعده بأن يجنّبه كل ملامة وكل عقاب، بل دفعة واحدة اقتاده مُبرَّراً إلى الفردوس.

الاعتراف المقدَّس:

هل لاحظتم أن اللص قد تبرَّر بفضل اعترافه عن خطاياه؟ إن الإحساس الإلهي نحو البشر عظيم جدًّا. إنه لم يشفق على ابنه الخاص لكي يشفق على العبد. لقد سلَّم ابنه الوحيد لكي يفتدي العبيد الجاحدين وسفك دمه كثمن لهم.

يا للإحسان الإلهي. أرجوكم لا تعودوا تحتجُّون بقولكم: لقد أخطأت كثيراً فكيف يمكن أن أخلص؟ لأن ما لا تستطيعون أن تعملوه، فالله يستطيعه، وقدرته قادرة حتى إلى محو كل خطاياكم.

انتبهوا لما سأقوله: الله يمحو خطاياكم بحيث أنه لا يعود يتبقى لها أي أثر. مثل هذه الأعجوبة لا توجد في الطبيعة؛ فالطبيب يستطيع أن يظهر كل مهارته وحذقه لكي يعالج جرحاً، ومع ذلك لن يصل لمحو كل أثر لذلك الجرح.

تخيَّلوا مثلاً أن رجلاً ضُرب على عينيه عدة مرَّات، فحتى ولو كل مرَّة اعتنى بجرحه فمع ذلك ستتبقَّى هناك ندبة (أثر الجرح)، وهذه الندبة ستشهد بعد ذلك على الجرح القديم. سيبذل الطبيب قصارى جهده لكي يمحو هذه الندبة ولكنه لن يستطيع؛ لأنه سيصطدم دائماً بضعف الطبيعة إلى جانب محدودية علمه وأدويته. أمَّا الله فإنه يمحو كل الخطايا ويفعل هذا بحيث لا يترك أي أثر لأيَّة ندبة، ويحرِّر النفس من كل شر ويجعلها تستعيد جمالها الأصلي، وهو يقدِّم لها برّه كله لكي يقيها كل عقوبة، وفي النهاية يجعل الخاطئ من كل الأوجه مماثلاً لمن لم يخطئ. وبالإجمال فإن الخطية تختفي تماماً وكأنها لم توجد قط، فلا ندبة على الإطلاق ولا أثر ولا شاهد ولا دليل.

تعليم الكتاب:

(٣) كيف أستطيع أن أؤكّد ذلك؟

يجب عليَّ أن أُدعِّم كلامي بالإثباتات، وبدلاً من أن أطرح تـأكيدات واهيـة سـ ـيكم حقًا كـاملاً. وسـوف أؤكّدهـا بإثباتـاتي مـن الكتـب المقدَّسـة. إن الرجال الذين سـأذكرهم كأمثلـة عـانت مـن جـروح عديـدة (للخطيـة)، وهـي تُشكّل عينةً من البشر تغطّت بالكـامل بـالجروح وسُـلّمت للغرغرينـا والفسـاد. هؤلاء إذن الذين لم يكونوا إلاّ جروحاً ورضوضاً أمكن معـالجتهم، حتـى أنـه لم يعد يتبقّى أيَّة ندبة أو أثر لها. ومع ذلك فإنني أكرِّر أنها لم تكن مجرَّد جرح أو اثنين أو ثلاثة بل كان الشر قد استشرى من الرِّجلين إلى هامة الرأس.

أعيروني انتباهكم، لأن كلماتي تخصنا كلنـا وتسـاهم في خلاصنـا. إنـني أُعدّ الأدوية التي تفوق كـل مـا يسـتطيع الأطبـاء تحضـيره. بـل إن الملـوك لا يستطيعون أن يقتنوها، فماذا يستطيع الملك؟ بالتأكيد له السـلطان أن يخـرج من السجن لكنه لا يستطيع أن يخلّص أحداً من جهنم. إنه يستطيع أن يُغـني إنساناً لكنه لا يستطيع أن يخلّص نفساً.

من ناحيتي فأنا سأضعكم بين يدي التوبـة لكـي تدركـوا اتسـاع قوتهـا، وتعلموا أن الشر يرضخ دائماً أمامهـا، ولا توجـد أيـة خطيـة تسـتطيع غلـى الإطلاق الهرب من سلطانها. وسأبيِّن لكم أيضاً أنني لن أسـتند علـى بعـض الأمثلة الهشة، ولكني سأستند علـى أمثلـة لآلاف الأشـخاص الذيـن ملأتهـم الجروح المتقيِّحة، الذين تثقّلوا بخطايا عديدة وعملت فيهم التوبة شفاءً كاملاً لم يترك أي أثر أو ندبة.

لكن ركِّزوا كل انتباهكم، سأذهب إلى أبعد مـن ذلـك. اجتهـدوا في أن تحفروا كلماتي في ذاكرتكم لكي تعلّمـوا الغـائبين وتنعشـوا حمـاس المؤمنـين الذين لم يحصلوا على هذه التعاليم.

إشعياء النبي:

فلنسأل الآن إشعياء النبي الذي تأمَّل السـاروفيم، والـذي سمـع الإنشـودة الخالدة، والذي تنبَّأ بنبوات متعدِّدة تخص المسيح «رؤيـا إشـعياء (النـبي) بـن

أموص التي رآها على يهوذا وأورشليم». إن النبي في هذه الرسالة يسلّمنا رؤيا له. وهذه كلماتها الأُولى: «اسمعي أيتها السموات واصغي أيتها الأرض لأن الرب قد تكلّم». لكنك لم تتكلّم عن ما أعلنته في البداية يا إشعياء؟ فرسالتك يجب أن تكون مختصة بيهوذا وأُورشليم، وهوذا أنت قد تركت هذا الأمر جانباً لتخاطب السماء والأرض. لماذا تصرف وجهك عن البشر العاقلين لكي تخاطب عناصر عديمة العقل؟

اعلموا أن الكائنات العاقلة قد انحطّت حتى إلى مستوى أقل من الكائنات المجرَّدة عن العقل، ومن ناحية أخرى فإن موسى عندما قاد العبرانيين إلى أرض الموعد، أحسَّ بقلبه بأولئك الذين في المستقبل سوف يحتقرون الطريق التي وصفها لهم فهتف أيضاً قائلاً: «أنصتي أيتها السموات فأتكلّم ولتسمع الأرض أقوال فمي» (تث ٣٢:١). إنني أُشهد عليكم السماء والأرض إنه إذا وصلتم أرض الموعد وتركتم المسيح إلهنا فأنتم سوف يصيبكم التشتيت في كل الأمم.

عندما أتى إشعياء كان التهديد على وشك أن يصير حقيقة. فلم يستطع إشعياء أن يخاطب لا موسى ولا أولئك الذين سمعوا حينذاك لأن الكل كانوا قد ماتوا، فلذلك خاطب عناصر الطبيعة التي سبق أن أخذها موسى كشاهد. لقد نقضتم وعدكم أيها اليهود وتركتم الله. كيف أدعوك يا موسى وأنت قد مُتَّ ومهمتك قد انتهت؟ هل أدعو هارون ولكنه هو أيضاً قد رحل عن العالم. ألم تعد تعرف لمن توجَّه كلامك يا إشعياء؟ خاطب إذن العناصر الجامدة.

اسمعي أيتها السموات:

لهذا السبب وعلى مدى حياتي أيضاً لم أستشهد لا بهارون ولا بأي واحد آخر لأنهم جميعاً ماتوا ـ لهذا إذن فأنا أدعوكِ أيتها الأشياء الطبيعية لأنكِ باقية. لذلك صرخ إشعياء قائلاً: «اسمعي أيتها السموات واصغي أيتها

الأرض» لأن موسى يوصيني (بمثاله) أن أدعوكِ اليوم.

ولكن هناك أيضاً سببٌ آخر: إنه كان يخاطب اليهود: أيتها السموات اسمعي لأنكِ أنتِ التي أسقطتِ المن، أيتها الأرض، اصغي لأنكِ أنت التي أُعطيتِ السلوى. اسمعي اسمعي أيتها السموات لأنكِ أنتِ التي جعلتِ المن يسقط، أنتِ التي جاءت فيك هذه الظاهرة فوق الطبيعية من العلا ـ تجوَّلتِ لحقل فائض الخصوبة. اصغي أيتها الأرض لأن هنا على الأرض قد تهيَّأت مائدة عظيمة.

لم تكن الطبيعة هي التي عملت في ذلك الزمان ولكن النعمة. إنه لم يكن هناك لزوم لبذل جهد فوق الطاقة لكي ينضج الحصاد. ولم يكن هناك احتياج لطبَّاخ ولا أيضاً لتوصيات خاصة. المن مصدر غذاء حقيقي مقدَّس، كان هو البديل لكل أنواع الأغذية الأخرى. لقد تناست الطبيعة ضعفها، كيف أن ملابسهم لم تبل وأحذيتهم لم تتهرَّأ؟ كل ذلك كان يخدمهم.

«اسمعي أيتها السموات واصغي أيتها الأرض»، بالرغم من كل العجائب التي لم يُسمع بها وبالرغم من هذه الإحسانات فقد أُهين الرب؛ لمن سأتكلَّم؟ هل لكم؟ لكن لم يسمعني إنسان! لقد أتيت ولم يوجد أحد، لقد تكلَّمت ولم يسمعني أحد؛ لذلك فإلى الأشياء غير العاقلة أوجِّه كلامي حيث أن ذوي العقول قد انحطوا لمستوى محزن.

لهذا السبب أيضاً فإن نبيًّا آخر إذ رأى السلوك غير العاقل للكهم وهو يوقد للوثن ويهين الله والكل يرتعد خوفاً فصرخ: «يا مذبح يا مذبح اسمعني» (١مل ١٣: ٢). ما هذا؟ أتخاطب حجراً أيها النبي؟ نعم؛ لأن هذا الملك قد صار عديم العقل أكثر من الحجر.

«اسمعي يا مذبح اسمعي، هذا ما يقوله الرب» والمذبح أيضاً انشق والحجر سمع وانفلق وذُرِّي الرماد في كل جهة. ومع ذلك فإن الملك ظلَّ أصم إزاء هذه

الكلمات، إذ مد يده بشدة لكي يمسك النبي، لكن الله تدخّل ويبّس يده.

أترون إحسان الله في هذا الفعل وتدركون مدى خطأ العبد؟ إن الله لم يبّس تلك اليد من البداية، لعل مشهد المذبح المنشق يقتاد الملك إلى الصواب. وبالفعل لو لم يكن الله قد أجرى هذه المعجزة (انشقاق المذبح) لكان عفا عن الملك، لكن، حيث أنه لم يقدّم سلوكه لدى رؤيته المذبح المنشق فقد صب الله غضبه عليه.

لقد رفع الملك يده ليضرب النبي فيبست تلك اليد في موضعها. هكذا انتصبت راية النصر، فلا الجنود المسلّحين ولا الحرس الموجود بأعداد غفيرة استطاعوا أن يشفوا هذه الضربة، وظلّت اليد يابسة تشهد بانحطاط الإثم وتعلن انتصار التقوى وتُظهر الضلال الجنوني للملك، ولكن (في نفس الوقت) تشهد بالإحسان الإلهي تجاه البشر، وهكذا لم يستطع شيء أن يعيد الصحة إلى هذه اليد.

منافع التوبة:

(٤) بسبب كثرة التفاصيل الجانبية نكاد نبتعد عن موضوع حديثنا الأول، لذلك سأذكّركم به. إنني أقصد من كلامي أن أوضّح لكم أنه لو كان أحد مغطّى بالجروح، فإنه يكفي أن يتوب ويعمل أعمالاً صالحة لكي يمحو الله له خطاياه بالكلية حتى لا يعود يتبقّى أي أثر أو ندبة، أو دليل لجرح قديم. سأبذلك قصارى جهدي لكي أبر بوعدي!

«اسمعي أيتها السموات وأنصتي أيتها الأرض لأن الرب تكلّم» ـ فماذا قال؟ «ربيت بنين ونشّأتهم أمّا هم فعصوا عليّ. الثور يعرف قانية (= أبنائي عديمو العقل أكثر من الحيوانات)، والحمار مِعْلَف صاحبه (= إنهم أكثر غباءً من الحمير)، أمّا إسرائيل فلا يعرف، شعبي لا يفهم. ويل للأمة الخاطئة».

لكن ألا يوجد رجاء للخلاص؟ لماذا هتاف اليأس هذا؟ لأنني لا أجد

(استجابة) للشفاء. وماذا أيضاً؟ لأنني قدَّمت أدوية عديدة والجرح لا يستجيب، وأيضاً أنا تركته. ماذا أستطيع أن أفعل أيضاً؟ لقد سأمت من محاولات الشفاء.

«الويل» كلمة تقال في نحيب النسوة الذي يكون مناسباً لهذا الحال. انتبهوا لي حسناً: لماذا إذن هذا الويل؟ إن شعور النبي هنا مشابه تماماً لشعور طبيب يجد أن مريضه لم يعد له أي أمل في الشفاء. فهو يبكي وأسرة المريض وأصدقاؤه في حالة غمّ وهم يتأوَّهون لمصيره. كل هذا غير مفيد تماماً، فحتى ولو سكب العالم كله الدموع على شخص في النزع الأخير فلن يستطيعوا أن يعيدوه للحياة. إن موشحات الحزن على الميت لا يمكن أن تصير أناشيد قيامة!

لكن ليست الأمور هكذا بالنسبة للنفس. ابكوا حرحها فيكون لديكم كل الفرص لإنعاش وإقامة مَنْ كانت نفسه ماتتة. كيف يتضح هذا؟

بمجرد أن يموت الجسد لا يمكن إنعاشه بأية قوة بشرية، بينما النفس الميتة من الممكن إعادتها للحياة بتقويم السلوك. كثيراً ما يكفي أنكم تنوحون عندما ترون مستبيحاً لكي تعيدوه للطريق المستقيم، لهذا لم يكتفِ بولس الرسول بكتابة تعاليمه ومواعظه للمؤمنين، بل يضيف البكاء والتأوُّهات إلى الإنذارات التي وجَّهها لكل واحد منهم. ولكن لماذا خلط البكاء مع الإنذارات؟ لكي إذا ظهرت إنذاراته غير مجدية، فدموعه تحل محلها.

إن دموع النبي تعبِّر عن نفس الأحاسيس، فعندما رأى الرب سقوط أورشليم فقد خاطب المدينة الساقطة بهذه التعبيرات التي تشبه نحيب إنسان: «يا أُورشليم يا أُورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسَلين إليها» (مت ٢٣: ٣٧)، والنبي قال: «ويل للأمة الخاطئة الشعب الثقيل الإثم.» (إش ١: ٤)

النحيب على الخطية:

ما أسوأ صحة هذا الجسد؛ أتنظرون جروحه العديدة؟ «نسل فاعلي الإثم

أولاد مفسدين». لماذا تنوح هكذا؟ «تركوا الرب استهانوا بقدوس إسرائيل، علامَ تُضربون» بأي شيء سأضربكم؟ أبالمجاعة أم بالوبأ؟ كل العقوبات استنفذتها ولكنها لم تقضِ على رذيلتكم: «تزدادون زيغاناً كل الرأس مريض وكل القلب سقيم لا يوجد جرح ولا أحباط». هذه لغة جديدة ـ فمنذ قليل كنت تقول: «نسل فاعلي الشر أولاد مفسدين تركوا الرب استهانوا بقدوس إسرائيل» وأيضاً: «ويل للأمة الخاطئة». لم تكفّ عن النحيب والبكاء والرثاء، وعدَّدت الجروح، وهوذا الآن يبدو أنك تنفي قولك الأول إذ تقول: «لا يوجد جرح ولا أحباط» (= حسب الترجمة السبعينية).

اسمعوا؛ في البداية كان يوجد جُرح، فجزء من الجسد كان مصاباً بينما كان بقية الجسد سليماً، لكن بعد ذلك صار كله جرحاً واحداً «من أسفل القدم إلى الرأس ليس فيه صحةٌ بل جُرحٌ وأحباطٌ وضربةٌ طريةٌ لم تُعصر ولم تُعصب ولم تُلَيَّن بالزيت. بلادكم خربة، مدنكم محروقة بالنار، أرضكم تأكلها غرباء قدَّامكم» (إش ١:٦). بالرغم من كل المصائب التي سكبتها عليكم فأنتم لم تغيِّروا سلوككم. لقد أظهرت كل مهاراتي والمريض ما زال يصارع الموت.

«اسمعوا كلام الرب يا قضاة سدوم، أصغوا إلى شريعة إلهنا يا شعب عمورة: لماذا لي كثرة ذبائحكم يقول الرب». كيف؟ هل يخاطب السادوميين؟ لا، بل يدعو اليهود سادوميين لأنهم كانوا يتمثّلون بتصرفاتهم. «اسمعوا كلام الرب يا قضاة سدوم، أصغوا إلى شريعة إلهنا يا شعب عمورة، لماذا لي كثرة ذبائحكم يقول الرب. اتّخمتُ من محرقات كباش وشحم مُسمَّنات؛ لا تعودوا تأتون بتقدمة باطلة، البخور هو مكرهة لي، رؤوس شهوركم وأعيادكم أبغضتها نفسي أصوامكم واحتفالاتكم لست أطيقها، حين تبسطون أيديكم أستر عيني عنكم.» (إش ١: ١٠ـ١٥)

هل رأيتم من قبل غضباً كهذا؟ يدعو النبي السماء، ويبكي ويتأوَّه وينتحب ويعلن أنه لا يوجد جرح وأحباط. الله ساخط ولا يقبل ذبيحةً ولا

رأس شهر ولا سبتاً ولا تقدمة ولا صلوات ولا حتى أيادي مرفوعة نحوه. أترون الجرح؟ أترون هذا المرض عديم الشفاء الذي أصاب ليس واحداً أو اثنين ولا عشرة بل آلاف؟ ماذا يمكن أن يصنع بعد ذلك؟

يقول: «اغتسلوا تنقوا» (إش ١:١٦). هل هناك خطأ بعد ذلك يدعو إلى اليأس؟ فبعد أن قال الله حالاً: لن أسمعكم! هنا يدعونا أن نتطهَّر. لماذا هذه اللغة المزدوجة؟ في الواقع إن هذه الكلمات وتلك تعمل لخيركم. الله يبدأ بإحافتكم ثم يجتذبكم. ولكن رب معترض يقول: إن كنت لا تسمعهم بعد - إذن فلم يعد لهم أي رجاء في الخلاص؟ وفي هذه الحالة لماذا تقول لهم تنقوا؟

الله أبٌ:

الله أب ممتلئ حناناً، وهو الصالح وحده، وأحشاؤه تتحرَّك أكثر من أي أب. فلكي تفهموا حسناً أنه يتصرَّف كأب فقد وضع هذا السؤال لأولاده: ماذا سأفعل يا يهوذا؟ ألا تعرف ماذا ستفعل يا رب؟ نعم أنا أعرف. لكن لا أستطيع أن أعمد إلى هذا. فثقل الخطايا يتطلَّب عقوبة لا تتفق مع عظيم إحساني تجاه البشر. فماذا سأفعل إذن؟ هل يجب أن أساعكم؟ لكن هذا سيزيد عدم إكتراثكم. هل يجب أن ألاحقكم بغضبي؟ صلاحي يمنعني. فما العمل؟ هل أعاملكم كسدوم؟ هل أفنيكم كعمورة؟ يتقلَّب عليَّ قلبي!

مع أن الله فوق الأحاسيس البشرية إلاَّ أنه يستعير هنا أحاسيس الإنسان ويظهر حناناً يفوق حنان الأم: «قلبي انقلب عليَّ». فالأم لا تتكلَّم بغير هذا عن طفلها. لكن الله لم يقنع بأن يذكر انقلاب قلبه اللائق بالأمومة بل يضيف أيضاً: «قد انقلب عليَّ قلبي. اضطرمت مراحمي جميعاً.» (هو ١١:٨)

هل اضطرب الله حقاً؟ لا - فاللاهوت فوق هذه الانفعالات ولكن كما قلت إنه يستعير لغتنا: لقد انقلب عليَّ قلبي فاغتسلوا وتنقوا! لنعد إلى وعدي (= عدم الاستطراد) لقد أكَّدت لكم أن الله يشفي الخطاة، البشر المحمَّلين بخطايا لا تُعدُّ والشبيهة بالقروح، بمجرد أن يتوبوا لا يبقى هناك أي

أثر أو ندبة أو علامة على الجرح.

+ «اغتسلوا تنقوا، انزعوا شر أفعالكم من أمام عينيَّ، تعلّموا فعل الخير.» (إش ١: ١٧)

ماذا تعني بـ«فعل الخير»؟

«اطلبوا الحق انصفوا المظلوم اقضوا لليتيم، حاموا عن الأرملة» ـ هذه التوصيات ليس فيها أي تثقيل وهي تبدو متوافقة مع الطبيعة، لأن هذه الحالات تثير الشفقة حقًا.

ابذلوا الجهد:

يقول الرب: «هلمَّ نتحاجج» ـ ابذلوا بعض الجهد من جانبكم وأنا سأرتّب الباقي. أعطوني حتى ولو شيئاً قليلاً وأنا سأمنحكم الكثير. هلم إذن! لكن إلى أين؟ هلموا إليَّ أنا الذي أسخطتموني وضايقتموني: إليَّ أنا الذي قلت لكم إنني لا أسمعكم ـ راحياً بذلك أن الخوف المتولّد من التهديد يقتادكم لتبديد غضبي. اذهبوا لمن لا يسمعكم لكي يسمعكم. ولكن ماذا ستفعل؟

لن أترك فيكم أي أثر أو ندبة أو علامة على جرح قديم: «هلم نتحاجج يقول الرب، إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيضُّ كالثلج» (إش ١: ١٨). أبلا ندبة؟ أبلا غضن؟ أمع هذا البهاء من النقاوة؟! «إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيضُّ كالثلج». أأنقياء بدون أي دنس؟! كيف سيصير هذا؟ إنها كلمات الرب نفسه: هل وعدتكم بخلاف هذا؟

هكذا استطعتم أن تدركوا عظمة مواعيد الله من جهة، ومن جهةٍ أخرى كمال الله الذي يسبغها علينا. كل شيء مستطاع لله، إنه قادر على تطهير الإنسان حتى ولو كان كله نجاسة. فلنتقوَّى بهذه التعاليم ونزداد نضوجاً بمعرفة هذا الدواء أعني التوبة. ولنقدِّم له السجود اللائق لأن له القوة والمجد إلى دهر الدهور آمين.